جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم التربية الفنية

الخط العربي/ المرحلة الأولى

الزخرفة الإسلامية

أ . م . د عامر سالم عبيد / مدرس المادة

الزخرفة الاسلامية

إذا أردنا تأشير تاريخ محدد لوجود الزخرفة فإن بوادرها الأولى تعود إلى العصر الحجري القديم في عصر ما قبل التاريخ، فقد وُجِدت الرسوم الزخرفية مع الرسوم التصويرية، إذ استُخدمت مع الأدوات والأواني، وكان يغلب على الوحدة الزخرفية الطابع الهندسي أو الأشكال المحورة أو المجردة، وقد أعتُمِدَ في تكوينها الأساسي الخط والنقطة والي لا تحمل غالباً معنيٍ معيناً، وقد كان للنقطة والخط دوراً فاعلاً في تصميم الرسوم الزخرفية التي تعتمد على سعة الخيال وخصوبته، فقد اعتُمِدَ على وحدات هندسية ونباتية وآدمية تُحاكي الطبيعة من خلال استخدام هذه الوحدات على المساحة المحددة الضيقة ثم الاكتفاء بجزءٍ من هذه الرسوم أو اختزالها، وهكذا نشأ التجريد في الفن، والتجريد هو أحد أركان الزخرفة، وأهم قيمه هو التعبير الرمزي .

والزخرفة كما يُعرفها ابن (منظور) بأنها : الزينة، وكمال حُسن الشيء، والمُزخرِف هو المُزيِّن، والتزخرف هو التزيُّن، والزخرفة زينة النبات، ومنه قوله تعالى : ((حتى إذا أخذت الأرض زخرفها)) وقيل زيَّنها بالنبات، وقيل تمامها وإكمالها، وزخرف الكلام نغَّمه، وتزخرف الرجل إذا تزيَّن، وكذلك المرأة .

والزخرفة فن إنساني شأنها في ذلك شأن فن الرسم أو النحت أو العمارة، أي أنها ذات بنية مكانية نستطيع استيعابها عن طريق حاستي البصر واللمس أحياناً، فهي تُنجز عن السطح التصويري كأي لوحة زيتية أو رسم تخطيطي، كما يمكن أن تُنجز كأي منحوتة أو واجهة جدارية، ولكنها تختلف عن باقي الفنون التشكيلية اختلافاً جوهرياً من حيث نظامها الفكري، فحين تكون الطبيعة لذاتها واسطة للتعبير عن الرؤية الفنية في حالة الرسم أو النحت مثلاً، تُصبِح الأشكال المجردة واسطة للتعبير الزخرفي في حالة فن الزخرفة . وقد اهتم العرب كثيراً بالبناء والزخرفة، ولم يتوقفوا عند حدود الاقتباس من الأمم الأخرى، بل بدأوا أولى خطوات إبداعهم منذ العصر الأموي، وما بعض الخصائص مثل : استعمال الملاط الجصي، وتقسيم الألواح إلى معينات، وترتيب العناصر الهندسية والنباتية، ما هي إلاَّ مقدمة لولادة طرازٍ جديد إختص به العرب، وقد تطور هذا الفن على امتداد العصور المختلفة وأصبح مصدر إلهامٍ لفناني العالم .

كما إن الزخرفة الاسلامية من حيث تمثيلها عِبر التراث تعكس باستمرار الشخصية العربية والاسلامية الحضارية، فضلاً عن مكانتها الفكرية التي تُمثل مرحلة متقدمة من مراحل تطور النتاج الفكري الانساني.

العناصر الأولية للزخرفة :

من أهم العناصر الأولية للزخرفة هي :

أولاً– النقطة :

النقطة الزخرفية تختلف عن النقطة الهندسية، إذ تُمثل شكلاً صغيراً وهي أبسط العناصر التشكيلية لعمل التكوين الزخرفي، وهي في حد ذاتها تحتوي على قوى كامنة من التمدد والتقلص، وفي حالة وجود أكثر من نقطة تدلنا على وجود أكثر من نشاط أو اتجاه، مما يجعل العين تتبع حركتها في المساحات، وتحريك النقطة يكوِّن الخط، فالنقطة أساس لكل العناصر والوحدات التشكيلية .

أما النقطة الهندسية فلها وضع مجرد من الطول والعرض والارتفاع، أي ليست لها أبعاد هندسية، وكلما كانت النقطة دقيقة كانت أقرب إلى النقطة الهندسية الصحيحة .

ثانياً– الخط :

يُعرف الخط هندسياً بأنه الأثر الناتج من تحرك نقطة أو تلاصق نقاط مع بعضها، وهو ليس له عرض، وله وظيفة من خلال الشكل الذي يظهر عليه، والخط أقدم واسطة للتعبير والتمثيل الفني، وبه يمكن تكوين الأشكال بكل بساطة واقتصاد، ويمكن أن يكون الخط مستمراً، أو منقطعاً، أو مستقيماً، أو منحنياً .

قواعد الزخرفة :

١– التوازن : هو القاعدة الأساسية التي يجب أن تتوفر في كل تصميم زخرفي .

٢– التناظر : وهو من القواعد التي ترتكز عليها بعض التصميمات الزخرفية، وهو نوعان : (تناظر كلي) و (تناظر نصفي) .

٣- التشعُّب : وفيه تنبثق خطوط الوحدة إلى الخارج، وهو نوعان : (تشعُّب من نقطة) و (تشعُّب من خط) .

٤- التكرار : وأساليبه كثيرة تجمع بين العديد من العناصر الزخرفية في تكوينات تضم أكثر من وحدتين بشرط التشابه بينهما، والتكرار على أنواع : (التكرار العادي) و (التكرار العكسي) و (التكرار المتبادل) و (التكرار المتساقط) و (التكرار الأفقي) و (التكرار الرأسي) و (التكرار المائل) و (التكرار المنحني) و (التكرار الدائري) .

أثر الخط العربي والزخرفة في الفنون الأوربية:

عرف الأوربيون الفن العربي في القرون الوسطى متمثلاً في التُحف الفنية التي نقلوها من الشرق أو نُقلَت إليهم، وكان ذلك عن طريق التجارة التي كانت قائمة بين الشرق وبين أوربا ثم عن طريق الأندلس التي كانت لها دور مهم في نقل التراث الفني العربي إلى أوربا .

كما كانت التُحف والهدايا التي يبعث بها الخلفاء والسلاطين العرب إلى أوربا وأمرائها مصدراً ثالثاً من المصادر التي يسَّرت انتقال كثير من التُحف الفنية العربية إلى أوربا، وعندما شاهد الفنانون الأوربيون هذه المنتجات أعجبوا بها وبزخارفها فأقبلوا على تقليدها .

ومن المعروف أن الخط العربي أهم ما برز به العرب في مجال الفنون والعمارة فقد أجاد به الفنان أعلى درجات الإجادة، كما أدَّت معرفة العرب بصناعة الورق إلى تطوير الخط أيضاً، وكذلك إقبال الفنانين العرب على استخدام الخط العربي بشكل كبير وملحوظ بحيث لا يكاد يخلوا أثر من الآثار العربية الاسلامية من هذا الفن .

ليس من شك في إن الخط العربي كان أهم ما استرعى أنظار الفنانين الأوربيين، فقد وجدوا في الحروف العربية الكثير من صفات الزخرفة والشكلية والجمالية ما جعلهم يُقبلون على استخدام الخط العربي في التزيين وزخرفة تُحفهم ومبانيهم وأثاثهم المختلفة، وقد بلغ من إعجاب الأوربيين بالكتابة العربية أنهم نقلوا نقلاً صادقاً بعض العبارات العربية دون أن يعرفوا ما تحمل تلك العبارات. ومن أشهر فناني إيطاليا الرسام (جيوتو) فقد ضمَّن هذا الرسام بعض لوحاته نماذج من الأقمشة العربية تُحليها زخرفة مُستمدة من الكتابة العربية، ولم يقف استخدام الخط العربي عند هذا الحد في أوربا بل استُخدِم في ميادين النحت وفي مجال العمارة أيضاً، فقد أدى الخط

العربي دوراً كبيراً في زخرفة العمائر الأوربية، بل دخل الخط العربي في كثير من المنشآت ليُضيف لها إجلالاً واحتراماً سواء أكانت تلك المنشآت دينية أو دنيوية .

لا بد لنا في هذا المقام أن نتساءل : لماذا لقيت الفنون الاسلامية هذا القبول في أوربا ؟ وأول نقطة تُذكر في هذا الشأن هي عدم وجود رموز دينية خاصة في فن التصوير الاسلامي يُمكن أن تجرح إحساس العقلية المسيحية، فالأشكال التي اتخذها التصوير الاسلامي في هيئة حيوانات وطيور وتزويقات جعلت الأشياء التي تحمل هذه التصاوير مقبولة تماماً حتى عند استخدامها في بعض المنشآت الدينية وبشكل ملحوظ ففي صورة للسيدة العذراء في إحدى الكنائس كانت هناك كتابات عربية في الهالة التي تُحيط برأسها، وكذلك على أطراف الثياب التي كان يلبسها القديسون وعلى أبواب الكاتدرائيات، وعلى الرغم من إن الكتابة العربية كان لها معنى رمزي في العالم الاسلامي، وإن بعض النصوص عبارة عن أدعية يتكرر فيها اسم الله فإن أهل الغرب يُعتَقَد أنهم لم يفهموا على هذا النحو، أو ربما فُسِّرَت على أنها حليات زخرفية . وهناك سبب آخر أكثر إيجابية لقبول الفنون الاسلامية وهو قيمتها الجمالية الواقعية التي تتمثل في تناسقها وفخامتها وما تحمله من غنى في الألوان، وكذلك الدرجة العليا من الاتقان الفني .

الفن والعمارة :

هناك طريقتان في النظر إلى تراث أمة من الأمم، أما أن ينظرون إليه من حيث تأثيره على غيره، أو من حيث منجزاته، والطريقة الأولى تكاد تكون غير مؤثرة ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة بعضها يتصل بطبيعة العمارة نفسها، والبعض الآخر خاص بالدين الإسلامي ذاته، ومع ذلك كان تأثير الفن المعماري محدوداً، لأن فن العمارة مرتبط أكثر من غيره من الفنون بالبيئة التي ينشأ فيها، وهناك دون شك استثناءات لهذه القاعدة كما هو الحال مع إسبانيا والمناطق المجاورة لها، والتأثر المعماري الذي ساد منذ القرن الثامن الميلادي وما بعده والذي كان جزءاً من افتتان الغرب بكل ما هو غريب .

يمكننا الاتفاق على أن الفن الاسلامي المعماري الجديد اتخذ أهم أشكاله المميزة خلال العقدين الأخيرين من القرن الأول الهجري (القرن الثامن الميلادي) وأشهر الأمثلة لهذا الطراز الاسلامي الأول هو (الجامع الأموي) في دمشق، فقد أصبح هذا الطراز سائداً وتنتشر الروائع التي تنتمي إليه في جميع أرجاء العالم الاسلامي، ففي الأندلس نجد (جامع قرطبة) الشهير، وفي مصر نجد

(جامع ابن طولون) وجامعي (الأزهر، والحاكم) وفي العراق نجد (جامع سامراء) ، وهذا الطراز يمكن أن يُسمى (طراز البناء القائم على الأعمدة) لأن ميزته الرئيسية تكمن في إيجاد الفراغ باستعمال ماهرٍ لعنصرٍ معماري واحد وهو البلاطة، وتكوين المساحة الواقعة بين حاملين(إما أعمدة أو دعامات) وقد لجأ العرب إلى استعمال العديد من التعديلات وإدخال عددٍ من الملامح الثابتة على عمارة المساجد كالمآذن، والمحاريب، ونافورات أو بِرَك المياه .